الفصل الثالث
علم الإحاثة واللسانيات العصبية

إننا نطرق مجالا جديدا في علاقة علم اللسانيات العصبية بالعلوم الأخرى، لنري مدى ارتباط هذا العلم بها، لقد كانت بعيدة كل البعد عن علم اللغة وعلم الأعصاب إنه مجال علم الإحاثة الذي يقدم لنا تصورات جديدة ومعلومات حديثة حول اللغة في سالف العصور، وكيف تفيدنا معرفة علاقة الجهاز العصبي باللغة في تتبع تلك الأحافير، لنكشف اللثام عن لغة الإنسان الأول في التاريخ القديم، فندخله بأدلة علمية حديثة.

يقول فندريس مشيرا إلي حاجة الإنسان منذ بداية حياته في الكون وعلي الأرض إلي اللغة؛ فلا يمكن تصور مجتمع إنساني دون وجود لغة له، فتلك طبيعة المجتمع البشري في أي مكان لا بد من وجود وسيلة تواصل وتعارف بينهم تمكنهم من إنشاء مجتمعهم "اللغة هي أداة الفكر ومساعدته، هي التي مكنت للإنسان من الشعور بذاته ومن الاتصال بأمثاله، وجعلت من الميسور تكوين الجماعات. ومن العسير أن تتصور حالة أولية للإنسان كان فيها محروما من مثل هذه الوسيلة الناجعة للعمل. فتاريخ البشرية منذ بدايته يفترض وجود لغة منظمة، وما كان في وسعه أن يسير في طريق التطور دون اللغة."[1] هذا القول شهادة منه علي وجود لغة لدى الإنسان الأول منذ بدء الخليقة، ولكنه يحتاج إلي دليل يؤكده، وهذا ما يسعي علم الإحاثة إلي إثباته.

علم الإحاثة:

"هو العلم المعني ببحث أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السالفة علي نحو ما تظهر في المتحجرات أو الآثار المختلفة عن الحيوانات والنباتات"[2] يسعى هذا العلم إلي دراسة الحفريات، واستخلاص المعلومات عن تاريخ الكون والبشرية، لهذا نلجأ إليه لمعرفة تاريخ اللغة الإنسانية ليس هذا فحسب، فإن ما نأمل منه أكبر من ذلك؛ وهو محاولة إثبات امتلاك الإنسان المختفي في طيات التاريخ لغة؛ ومعرفة كيف كانت هذه اللغة، وبحث جذورها في دماغ أول إنسان وجد في الأرض.

---

(١) اللغة : ص٢٤

(٢) انظر كتاب (الإنسان. اللغة. الرمز) تيرنس دبليو. ديكون.ص٢٨

لهذا نبدأ حديثنا بهذا السؤال، ما علاقة نشأة اللغة بقضية اللسانيات العصبية؟ إنه سؤال يفتح المجال للبحث في الماضي البعيد عن البناء الفسيولوجي للإنسان، وتطوره، وما بقي منه من آثر تشير إلي أن الإنسان الأول كان يتكلم، وما الدلائل الباقية من العظام التي تؤكد أنه كان يتكلم؟ ما قيمة دراستها بالنسبة لفهم اللغة المعاصرة وتطورها؟

لهذا عالج هذا الفصل لغة الإنسان الأول وما قيل حولها من آراء في عدة محاور هي:

١- المحور الأول: اللغة والحفريات.

٢- المحور الثاني: علاقة نشأة اللغة بالدرس العصبي.

٣- المحور الثالث: صعوبة دراسة الحفريات.

٤- المحور الرابع: آراء مختلفة حول نشأة اللغة.

٥- المحور الخامس: لغة الإنسان الأول (إنسان نياندرثال نموذجا).

المحور الأول: اللغة والحفريات

١- الآثار الحفرية:

"خلف بشر ما قبل التاريخ وراءهم آثارا مادية أحفورية متنوعة وعديدة مثل الأدوات المصنعة من الحجر المنحوت، والبقايا المباشرة لهياكلهم العظمية، وخصوصا القحف والأسنان ... قد تم العثور - منذ عشرين سنة - علي آثار غير مادية للغاتهم، إما مثبتة في أسماء الأماكن التي سكنوها، وأسموها، وانتقلت شفهيا بالتراث، أو أنهم قد تحجروا - بشكل حقيقي - في كلمات اللغات الحالية الحية[(١)] ... كل معلوماتنا هي في تعديل مستمر رهن الاكتشافات الحديثة، والتي - لحسن الحظ - تتكاثر يوما بعد يوم، وتؤخر تواريخ أصولنا أكثر، فأكثر، إلي الماضي البعيد. كيف يمكننا أن نعرف ما إذا كان نوع بشري لما قبل التاريخ يتكلم أم لا ؟"[(٢)]

---

(١) سماها د. رمضان عبد التواب بالركام اللغوي، انظر التطور اللغوي قوانينه وعلله، الخانجي ط٢،١٩٨٢م.

(٢) الإنسان ولغته من الأصوات إلي اللغة (الكلام): مارسيل لوكان، تر/ د.ماري شهرستان، الأوائل للنشر والتوزيع سورية دمشق، ٢٠٠٦ م ، ص٢٥

٢- اللغة والحفريات:

كيف نصل إلي لغة الأجداد من خلال عظامهم؟ لقد "نشأ الجدال حول أصل اللغة لأن الأدوات العظمية والحجرية في حد ذاتها، لا تخبرنا كيف عاش أسلافنا ... والحقيقة أن البنية الجمجمية للهيكل العظمي لا يسمح لنا حتى بأن نعرف بالتفصيل كيف تم بناء الدماغ، ناهيك بما فعل هذا الدماغ. ولا تستطيع الأدوات الحجرية الباقية لأسلافنا أن تخبرنا بأي شيء عن أدواتهم الخشبية والعظمية."[١]

لكننا لو تركنا هذا الجدل حول حقيقة امتلاك الأجداد للغة جانبا؛ ونظرنا إلي القضية في ضوء معطيات العلم الحديث ونتائجه؛ لبدا الأمر مختلفا تماما، فقد تقدم العلم في هذا المجال، وظهر علم جديد يسمي "علم آثار اللغة، وهو دراسة التنوع الرمزي لأصوات الكلام، انطلاقا من التحليل الصوتي الإحصائي، الذي تم حتى يومنا هذا في حوالي ٣٠٠ لغة ميتة، أو حية، التي تنوعت بالتطور منذ بروز الإنسان الماهر، قبل حوالي ثلاث مليون سنة ... حصل هذا التطور اللغوي خلال حوالي ثلاث مليون سنة، بينما لم تخترع الكتابة من قبل الإنسان إلا منذ ١٠٠٠٠ سنة تقريبا."[٢]

هذا القول يعني:

١- أن الإنسان الأول عرف اللغة منذ ثلاث ملايين سنة.

٢- وتطور اللغات عبر الأجيال هو سر تعددها؛ إن تعدد اللغات آية الله المعجزة.

لقد قُدمتْ دراسات جادة أعطتنا تصورا عن بداية الكلام والكتابة، فبدأ البحث بعمق كبير عن حقيقة أصل اللغة، وأصل الإنسان الأول الذي تكلم بها؛ من خلال الوسائل العلمية الحديثة، بدءًا من عملية اكتساب الطفل للغة؛ إلي السعي وراء البحوث العلمية الجديدة في مجال علم الأعصاب وبناء الخلية العصبية وأمراض الكلام، وكذا علم الإحاثة وما قدمه من تحليل معقد لأحافير البشر؛ وقدرات كامنة في مخه، مكنته من اكتساب اللغة والتكلم مثل القدرة علي الترميز الصوتي وغيرها، وكذلك دراسة مفهوم البنية التصورية؛ ودورها في فهم اللغة وصنع حواراته، وما يعنيه هذا

---

(١) إنجلس وأصل المجتمع البشري: كريس هارمان، تر/ هند خليل كلفت، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢ ص٣١

(٢) الإنسان ولغته من الأصوات إلي اللغة (الكلام): ص٢٧

المصطلح. إنه توجه آخر في دراسة أصل اللغة وتطورها من خلال علم جديد هو علم الإحاثة.

لهذا يجب دراسة لغة الإنسان الأول بعمق لفهم قضايا الإنسان المعاصرة ولغته.

المحور الثاني: علاقة نشأة اللغة بالدرس العصبي

دراسة تاريخ اللغة ونشأتها لها قيمة في معرفة أصل اللغة وتطورها، والربط بين البنية العصبية لأدمغة البشر قديما وحديثا؛ وفهم كيفية تطورها، ووسائل هذا التطور؛ وأهمها:

أ ــ الربط بين وظائف الإدراك المعرفي وتنظيم المخ:

يبدأ ديكون من أول القضية وهو ما يظهره هذا السؤال ما جدوى دراسة نشأة اللغة في الدراسات الحديثة خصوصا المتصل منها بالمخ؟ فيجيب عن قيمة دراسة نشأة اللغة قائلا "إن مشكلة نشأة اللغة يمكن أن تمثل لنا عمليا مدخلا من أهم الأفكار الواعدة ونحن نبحث عن المنطق الذي يربط بين وظائف الإدراك المعرفي وتنظيم المخ."(١)

فقضية الربط بين وظائف الإدراك المعرفي وتنظيم المخ جديرة بالدراسة تحتاج لتحليل دقيق. فنشأة اللغة البشرية لم تعد مستقلة بذاتها؛ بل ترتبط بقضايا أخري، فهي تساعدنا علي معرفة كيف تمت عملية الربط بين وظيفة (حواس/ مدارك) الإنسان التي توصل إلي مخه العلوم والمعارف، وتنظيم المخ لها، فتُكسب المخَ القدرةَ علي ترتيبها وتنظيمها داخله ليسهل استدعاؤها. ومعرفة كيف بدأت العملية في مخ الإنسان الأول؟

إن هذا التحول في فهم قيمة دراسة نشأة اللغة التي حدثنا عنها ديكون؛ تعد تطورا في فهم اللغة ذاتها والدخول بعمق أكبر مما سبق، فلم تعد نشأة اللغة نوعا من التسلية والسعي وراء الأساطير ومجارات الحكام في أسمارهم، كموضوع تاريخي، يسبح فيه الرواة ومفسرو الأحلام عبثا، بل أصبح قضية علمية جادة وموظفة لأهداف علمية أكبر مما سبق، ليفسر بها العلماء قضايا لغوية معاصرة يصعب أن نفهمها

---

(١) الإنسان .اللغة . الرمز:٣٣

منفردة. ومنها قضية الربط بين وظائف الإدراك المعرفي وتنظيم المخ وبين عملية إدراك المعلومة ومعالجتها بالمخ.

ب ــ دراسة العلاقة بين التطور اللغوي والتطور الفيزيولوجي:

يقول جاك موشلار "لكن من يناقش أصول اللغة لا يثير مسألة التطور الفيزيولوجي لجهاز التصويت بقدر ما يطرح مسألة تطور اللغة في حد ذاتها وأسباب ذلك. ولقد أثيرت مؤخرا هذه القضية من جديد في صياغة مستلهمة من دارون: هل اللغة ثمرة مباشرة للتطور أم هي ظاهرة عارضة ناتجة بصفة غير مباشرة عن تطور قدرات الإنسان الذهنية؟ أو بعبارة أخرى، هل يمثل ظهور اللغة ونمو الدماغ المترتب عنها أصل القدرة الذهنية البشرية، أم أن النمو المسبق المستقل للدماغ ونمو القدرات الذهنية البشرية الناتجة عنه أدّيا إلي ظهور اللغة؟."[1]إن الفكر الداروني يسيطر عليه كما يسيطر علي غيره من علماء اللغة؛ بيكرتون وديكون وفي كثير من آراء تشومسكي، لذا يجب شرح هذا النص.

ماذا في النص؟

إن هذا النص يطرح عدة أسئلة حول نشأة اللغة وتطورها أهمها:

١- كيف ظهرت اللغة لدى البشر؟

٢- وكيف تطورت؟

٣- هل حدث ذلك نتيجة لتطور الجنس البشري ككل؟

٤- أم حدث نتيجة تطور القدرات الذهنية للبشر؟

٥- هل يعد ظهور اللغة ونمو الدماغ أصل القدرة الذهنية البشرية (أي أنهما يصنعان القدرة الذهنية)؟

٦- هل النمو المسبق المستقل للدماغ ونمو القدرات الذهنية للبشر أديا لظهور اللغة؟

يجيب جاك موشلار عن ذلك قائلا "ربما يتعذر علينا تماما الإجابة بصفة عن هذا السؤال لكن لا شيء يمنعنا من طرح بعض الفرضيات ... إذا اعتمدنا الفرضية القائلة

---

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل:١٥

إن اللغة هي نتاج مباشر للتطور، يمكن لنا أن نطرح السؤال التالي: لماذا تطورت اللغة؟".[1]

إن دراسة نشأة اللغة تجعلنا نبحث عن أيهما يتطور فينا؛ اللغة أم القدرات الذهنية التي لدى البشر؟ وتلك هي النتيجة والقيمة التي نجنيها من دراسة نشأة اللغة. لقد عاد بنا النقاش إلي عرض فكرة التطور التي أتي بها دارون لنسأل. هل اللغة تتطور نتيجة تطور البني الدماغية للبشر؟ أم تتطور نتيجة نمو القدرة الذهنية الناتجة عن مكتسباته الحياتية من خبرة ومهارة ومعرفة؟ أم أن ظهور اللغة ونمو الدماغ هما من صنع القدرة الذهنية البشرية؟ هل نعتبر النمو الفسيولوجي للدماغ الذي أدي إلي ظهور اللغة لدينا يرجع إلي أصل القدرة الذهنية التي في أدمغة البشر؟

وأنا أميل إلي هذا الرأي الأخير. لأن كل أدمغة البشر تحوي قدرات ذهنية كامنة داخلها مكنتهم من إنتاج اللغة. عندما تتواكب القدرة الذهنية الكامنة وتتفاعل مع النمو الفسيولوجي للدماغ؛ فسيؤدي ذلك إلي زيادة القدرة الاستيعابية للدماغ، وإلي زيادة في نشاطها الوظيفي المسمي العقل؛ لتتفاعل الدماغ مع العالم المحيط بها بصورة أكبر. أما تطور اللغة واتساعها وتعددها إلي آلاف اللغات؛ فيرجع إلي شيئين. الأول: النمو الفسيولوجي للدماغ. والثاني: زيادة الأنشطة الحياتية، وتعددها، وتعقدها، وحاجة المتكلم إلي مفردات جديدة متطورة تستوعب كل جديد في حياته، فيطور في لغته.

ج ــ إثبات وجود اللغة عند الأنواع المنقرضة من البشر:

إن محاولة إثبات أن الإنسان الأول كانت لديه لغة هي مهمة كبرى يحاول هذا البحث بيانها. لأنه "لا تتحول اللغة إلي أحفورة كما تشير جميع الأوراق تقريبا التي نشرت حول موضوع اللغة في فترة ما قبل التاريخ، وهكذا، فإن الدليل المتعلق بلغة الإنسان نياندرثال هو بالضرورة غير مباشر، وإن العمل علي مد الجسور بين النظريات ضروري من أجل الاستدلال حول وجود أو غياب اللغة عند الأنواع المنقرضة"[2].

---

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل:١٥

(٢) إنسان نياندرثال: سفيركر جوهانسون، تر/ يامن عدنان صابور ، مجلة الثقافة العالمية الكويت العدد(١٧٢) السنة الثلاثون/سبتمبر ــ أكتوبر٢٠١٣، ص ١٣٤

لا يوجد دليل قاطع علي وجود لغة لدى الإنسان الأول، ففناء الإنسان وتحلل جسده واستتاره في كهوف الماضي؛ لم تترك لنا أثرا حول امتلاكه لغة ما. ولكننا نحاول أن نتصورها بطريقة غير مباشرة من خلال حفريات إنسان نياندرثال. لهذا جعلت له مبحثا خاصا حول ما قُدمتْ من دراسات عنه؛ نظرا لقيمة إثبات وجود لغة لديه.

المحور الثالث: صعوبة دراسة الحفريات

أعرضت المؤسسات اللسانية عن دراسة نشأة اللغة "فقد أثار أصل اللغة نقاشات منذ حوالي ٣٠٠٠ عام (علي حد علمنا)، كما أن التجارب الهادفة إلي حل المشكل قديمة كذلك. ولقد منعت المؤسسة اللسانية بباريس النقاش في هذا الموضوع سنة ١٨٦٦، لأنها رأت فيه مناسبة لخوض جدال عقيم لا طائل من ورائه."(١)

لماذا؟ "لأن بقايا الإنسان المتحجرة هي دوما ناقصة، بما أن الأجزاء الناقصة، مثل الحنجرة، واللسان، والشفاة، والتي هي ضرورية بشكل مطلق لنطق الكلام، ليست محفوظة بالتحجر. وإذا حالفنا الحظ، واكتشفنا قطعة جدارية من القحف محفوظة بشكل جيد من جهتي إدخال الأذن، يمكننا أن نستدل بقوالب صب، لطبعات باقية في حفريات العظام القحفية، عن الأوعية السحائية التي كانت تروي الدماغ.

تعطينا هذه الطبعات فكرة عن الأماكن الأكثر نشاطا في مسيرة تطور البشريات. وبما أن منطقتي اللغة متوضعان في قسم من هذه القطعة الجدارية للدماغ منطقة بروكا ومنطقة فيرنيك Wernicke Broka فيمكننا معرفة ما إذا كان الإنسان المعني كان يتكلم أم لا، أو حتى إذا كان يمتلك ـــ مثلنا ـــ النطق المبين المزدوج للغة، نظاما دلائليا، وتنوعا نحويا، وبتعبير آخر؛ ما إذا كانت هذه الكلمات إيضاحية فقط، أو أنها منظمة ـــ بشكل جيد ـــ بقواعد ضمن جمل." (٢)

صعوبة هذه الدراسة في رأي ديكون:

إن مشكلة الاستعانة بلغة الإنسان الأول في دراسة نشأة اللغة وتطورها؛ ترافقها عدة صعوبات؛ تتلخص في أن علم الإحاثة (علم الحفريات) لم يقدم دليلا قاطعا عما

---

(١) التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ١٤

(٢) الإنسان ولغته من الأصوات إلي اللغة (الكلام): ٢٦

ذكره عن نشأة اللغة، ويؤكد هذا ديكون بقوله "إن الحلقة المفقودة والأهم في اللغز هو فهم الأمخاخ موضوع البحث: أعني أمخاخ الإنسان الأول (الهومينيد) الذي هو سلفنا الأول، وإذا كانت قد توفرت لدينا معلومات كثيرة عن أحجام الأمخاخ في العينات الحفرية، فإن معلوماتنا قليلة جدا عن أشكال المخ، والمعلومات التشريحية بشأنها، والبنية الدقيقة الباطنية لكل هذه الأمخاخ علي اختلاف أنواعها، وذلك لأنها لم تخلف لنا أثرا حفريا، معني هذا أننا فيما يتعلق بالأمخاخ الحفرية، فمن المسلم به أننا لن نعثر أبدا علي حفرية مخ تمثل البرهان القاطع ـــ أي أول مخ قادر علي استخدام لغة، وإنما سوف نتوصل فقط إلي معلومات ثانوية عن الظروف والملابسات." [1]

هذا القول نفته بحوث حديثة، فقد عُولج هذا العجز بتقديم أدلة جديدة أكثر دقة (سنعرض لها عند دراسة لغة إنسان نياندرثال) لكننا بشكل عام يجب التمهل في الأحكام التي نبنيها علي الأحافير عند تحليلنا للغة الإنسان الأول؛ فالصعوبة التي ذكرها ديكون تنطلق من مشكلة أن الأحافير لا تحوي مخا حيا لنحلله، ونعرف اللغة التي كان يتكلمها، وهو هنا يقر أن الأساس في دراسة اللغة هو المخ الحي لا الأحافير التي تشير فقط إلي حجم الأمخاخ. لكن هذا القول مردود عليه بما قدمته البحوث التشريحية الحديثة من نتائج تخالف هذا القول. ونجده يكرر ما سبق أن قاله "إذن ما دورنا ونحن نتأمل ونفكر في البدايات الأولى للغة؟ إذا ما سلمنا بتعقد المخ البشري، وجهلنا الراهن بكثير من المبادئ الأساسية الحاسمة لتشغيله، وحقيقة أنه لا اللغات ولا الأمخاخ التي أنتجتها احتفظت بها الحفريات."[2] ويقول: "وأحسب أن صعوبة مسألة نشأة اللغة ليس سببها ما نجهله، بل ما نظن أننا نعرفه أن السبب في أن اللغة ليست ظاهرة واسعة الانتشار هو تعقدها الشديد ... ونري أيضا أننا نعرف أن اللغة تهيأت لأسلافنا حال تمكنوا من التغلب علي عوائق التعلم بفضل ما حدث في السابق من تغير في المخ، ... وأحسب أن ليس بالإمكان أن نكون علي يقين بالنسبة لأي منها، وأعتقد أن المشكلة أساسية أكثر، وأبعد ما تكون عن التفكير الحدسي علي نحو ما

(١) الإنسان .اللغة . الرمز:٣١

(٢) الإنسان .اللغة . الرمز:٣١

تفترض أي من هذه الروايات "[1].

هذا القول يوضح رأيه في حقيقة الدراسات اللغوية الحديثة حول نشأة اللغة فيشير إلي:

١- أن التعلم أساس نشأة اللغة في المخ؛ لأن اللغة مكتسبة بالتعلم فهو قدرة فطرية فيه.

٢- قوله: التغلب علي عوائق التعلم؛ ليس صحيحا؛ لأنه لا توجد عوائق للتعلم، فالتعلم قدرة فطرية كامنة في أمخاخ البشر لا يعوقها عائق؛ فهي عملية تواكب تطور المجتمع ونموه.

٣- أن الدراسة أخذت سبيلا جديدا في بيان حقيق نشأة اللغة؛ هو دراسة المخ البشري.

٤- أنها تقوم في أغلبها علي الحدس، وليس الدليل المادي القاطع. فجميعها روايات وافتراضات لا ترقى إلي الحقيقة القاطعة، وكما قيل: إذا لم يظهر دليل قاطع يخالف ما جاء في الكتب السماوية من أن أول إنسان علي الأرض هو آدم عليه السلام كأول إنسان امتلك لغة؛ علمه إياه الله سبحانه وتعالى وورثها بنيه؛ يصبح هو القول بلا منازع.

المحور الرابع: آراء مختلفة حول نشأة اللغة

تعددت الآراء وكثرت النظريات حول لغة الإنسان الأول أو قل اللغة في بدايتها؛ كيف كانت؟ وكيف نشأت؟ فكانت هذه المشكلة ولا زالت تؤرق العلماء منذ عهد أرسطو إلي يومنا هذا. فأعطوا تصورهم عن أصل اللغة ونشأتها. فهي تعد نموذجا للآتي:

١- بيان حقيقة ما ذكرته الآراء المختلفة حول أصل اللغة الإنسانية، هل وجد الإنسان علي الأرض ولديه لغة يتكلم بها؟ أم أتته نتيجة تطور بيولوجي لمخه؟ ومتى كان وكيف؟

٢- تطور الفكر الإنساني في الدرس اللغوي عند تناوله لقضية تبدو في أغلبها ميتافيزيقا.

---

(١) الإنسان .اللغة . الرمز:٣٤

٣- دور العلوم الحديثة في معالجة الأحافير وما قدمته من حقائق عن أصل اللغة ونشأتها.

لذا يجب عرض هذه الآراء علي اختلافها لبيان تطور الفكر الإنساني في تناوله للغة ومفهومه عنها، وقد تتبعنا هذه الآراء بداية من أصحاب الديانات المختلفة؛ مرورا علي أصحاب الأساطير؛ لننتهي إلي علماء اللغة المعاصرين؛ علي أساس من التسلسل الزمني.

أولا: نشأة اللغة عند أصحاب الديانات السماوية

أُبهر الإنسانُ المفكر منذ أقدم العصور بتلك الوسيلة التي تحقق له التواصل مع أبناء مجتمعه (اللغة) وزاد انبهاره عندما التقي مع أناس من مجتمعات أخرى بعيدة عنه، فوجدهم يصدرون أصواتا يتواصلون بها مع بعضهم. هي بالنسبة له لا تعدو أن تكون سوى أصوات يسمعها ولا يفهمها، تأتي في منزلة ما يسمعه من أصوات الكائنات الأخرى غير الإنسانية. هنا بدأ الإنسان يفكر بعمق أكبر في حل لغز هذه الأصوات التي يسمعها من بشر مثله ولا يفهمها، فاستعان بالترجمان، وأنشأ المعاجم لإزالة العجمة عن تلك الأصوات؛ ليفهمها ويتواصل مع المجتمعات الأخرى.

لقد كان أول من سأل عن البدايات الأولى للغة هم الفلاسفة، وكذلك أصحاب الديانات السماوية؛ الذين تلقوا الخبر من السماء؛ أن أول من تكلم من البشر هو آدم أبو البشر عليه السلام، ولأن رأي أصحاب الديانات السماوية مقنع بالسبب لِيّ لتوافقه مع طبيعة الأشياء؛ فكل علم أو مهارة يكتسبها الإنسان لابد لها من معلم ومدرب أول ليعلمه إياها ويدربه عليها حتى يتقنها. فمن المعلم الأول للإنسان الذي علمه اللغة؟

لقد كان رأيهم واضحا منذ بداية هذا الأمر، يظهر ذلك في حديثهم عن أول إنسان وجد علي الأرض آدم، فذكروا أن الله تعالى علمه كيف يتكلم وكيف يسمي الأشياء؛ وقدموا أدلتهم النقلية من القرآن الكريم والتوراة لتؤكد صحة ذلك. وهذا الرأي يتفق - كما ذكرت آنفا - مع نظريات التعلم الحديثة من ضرورة وجود معلم لمن أراد أن يتعلم أي لغة، باعتبارها حرفة مكتسبة ككل حرفة ومهارة يتعلمها من خلال معلمه.

الدليل النقلي:

يأتي الدليل النقلي من القرآن الكريم علي أن الله هو من خلق الإنسان الأول، وأعطاه القدرة علي إصدار الأصوات المختلفة؛ وعلمه كيف يصنع منها لغة كرموز صوتية للأشياء؛ لتنوب عنها عندما تغيب عن عينيه، فيستحضرها بذكر اسمها، فقال تعالى: **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** [البقرة: ٣١].

هذا ما قاله كل من آمن بالله وأنه صانع الكون والإنسان الأول، فهو من خلق آدم وعلمه ووجهه إلي كيفية تشغيل آلة إصدار الصوت فيه؛ فعرَّفه من خلال عملية تعليم مباشر كيفية تحويل هذا الصوت إلي رمز صوتي، تسمى عملية الترميز الصوتي، فرمزَّ آدم كل الأشياء التي في عالمه، كذلك فعل بنوه من بعده، فورثوا منه القدرة علي الترميز.

هناك دليل نقلي آخر، يقول د. رمضان عبد التواب "يستند أصحاب هذا المذهب إلي أدلة نقلية مقتبسة من الكتب المقدسة، فاليهود والنصاري يستدلون بما ورد في التوراة من قولها: "وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية، وكل طيور السماء، فأحضرها إلي آدم، ليري ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية، فهو اسمها، فسمي آدم جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية"[(١)].

الدليل العقلي:

كان الدليل العقلي أننا لا نجد ردا مخالفا مقنعا آخر علي ما قاله أصحاب الديانات السماوية؛ فإذا ذهبنا مع كل الآراء التي قيلت حول كيف كانت لغة أول إنسان وجد علي الأرض؛ فإننا سننتهي إلي القول بأنه لابد لهذا الإنسان الأول من معلم علمه ووجهه إلي توظيف وتشغيل آلته التي تصدر أصواتا فقط؛ تنطلق منه صباحَ مساءَ؛ ثم تتحول إلي لغة يحاور بها ويجادل ويناقش؛ مَن هذا المعلم والموجه والمدرب الأول؟ لا يصح أن يكون إلا مَن صنع الإنسان، وهو الله سبحانه وتعالى، الذي خلقه

---

(١) سفر التكوين:١٩/٢ ــ ٢٠ نقلا عن المدخل إلي علم اللغة د.رمضان عبد التواب الخانجي ١٩٨٥ ص١١٠

ووضع فيه آلة إصدار الصوت، وعرفه آلية تشغيلها، ليحقق الغرض من صُنْعه وخَلْقِه له؛ وهو عمارة الأرض. لا يوجد مخلوق في هذا الكون يستطيع أن يقوم بهذا العمل من بناء وتعمير وصناعة تفوق الخيال سوى الإنسان؛ فيصنع هذا كله. لذا كان في حاجة إلي وسيلة تيسر له هذا العمل، وتمكنه من استحضار الأشياء الغائبة عن عينيه، ليتكلم عنها ويفكر فيها علي الرغم من غيابها عنه، فيطور ويغير فيها كأنها ماثلةً أمامه.

وقد حدث ذلك من خلال عملية ترميز صوتي لهذه الأشياء، أي تحويلها إلي رموز صوتية؛ فيجعل لكل شيء رمزا صوتيا يشير إليه، وينوب عنه. أي ما يمكن تسميته بعملية التشفير الصوتي للأشياء، والترميز الصوتي. لقد جاء الدليل العقلي مطابقا للدليل النقلي في التأكيد علي وجود عملية ترميز صوتية؛ وفي بيان الحاجة إلي تلك العملية الترميزية؛ وكذلك علي ضرورة وجود معلم للإنسان الأول؛ ليعلمه كيف يُوظِّف تلك الأصوات التي تصدر عنه دون غاية محددة وبصورة تلقائية عفوية للقيام بهذا العمل وهو عمارة الأرض؛ فوضع لكل شيء رمزا صوتا يعبر عنه، ليصبح ذلك أيسر في عملية استحضاره للتواصل بهذا الرمز مع غيره، ثم قام بتعليم تلك المهارة ونقلها إلي بنيه فورثوها عنه.

رأي المفسرين:

كان للمفسرين رأي في تفسير الآية السابقة يعطي تصورا وعمقا أكبر للقضية مثل:

١ــ ابن كثير:

قال ابن كثير: "وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرض الخلق على الملائكة، وقال ابن جريج عن مجاهد: ثم عرضهم (عرض أصحاب الأسماء على الملائكة، وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني الحجاج، عن جرير بن حازم ومبارك بن فضالة عن الحسن – وأبي بكر، عن الحسن وقتادة – قالا علمه اسم كل شيء، وجعل يسمي كل شيء باسمه، وعرضت عليه أمة أمة"[(١)].

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، مكتبة التراث الإسلامي سوريا، حلب بدون تاريخ ج/١ ص/٧٣

نفهم من هذا أن الله سبحانه وتعالى علم آدم كيف يسمي الأشياء؛ وذلك بأن عرض عليه الأشياء، ثم أخبره وأعلمه اسم كل شيء منها، فتعلم منه أن هناك شيئا له وجود، وأن هذا الشيء له اسم يُدْعى به. هذا هو الدرس الأول، وهذا مجمل مختصر لما حدث، وهو المعلومة التعليمية المستهدفة من هذا الدرس.

إن عملية تحديد الشيء بإقرانه برمز صوتي خاص به وقيد له؛ ليصبح هذا الرمز الصوتي نائبا عنه في حالة غيابه؛ هي الغاية الكبرى من الدرس، فيربط بين شيئين هما: الدال والمدلول، الاسم والمسمي، وهذه أكبر مشكلة في القضية (كيفية الربط بين الشيء ورمزه الصوتي) لتصبح عملية الترميز مقدرة لدى آدم وبنيه من بعده، فأصبح لدى أبناء آدم تلك المقدرة أيضا. فوكلوا بها أفرادا متخصصين (المجامع اللغوية)، وغير متخصصين وهم كل أبناء اللغة؛ حيث نجد لديهم المقدرة علي تسمية الأشياء بأنفسهم دون مجامع.

وهذا ما أكدته عبارة ابن كثير (وجعل يسمى كل شيء باسمه) والفاعل هنا عائد علي آدم الذي قام بنفسه، حيث أصبح لديه مقدرة علي تسمية كل شيء باسمه، ثم قال ابن كثير (وعرضت عليه أمة أمة) أي عُرضت عليه الأمم كمسميات دون اسم لها؛ ليقوم هو بتسميتها بعد أن تُعْرض عليه ويراها بعينه.

٢ــ الشيخ الشعراوي:

يزيد عالمنا الكبير الشيخ الشعراوي الأمر وضوحا بقوله "هنا يتبادر سؤال: هل عَلّم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء منذ ساعة الخلق إلى قيام الساعة مادام الحق سبحانه وتعالى يقول كلها. فما هو حكم تلك الأسماء التي هي لمخترعات ستأتي بعد خلق آدم بقرون طويلة؟

"نقول إن الله سبحانه وتعالى حين علم آدم الأسماء وميزه على الملائكة يكون قد أعطى ذلك الأدنى عنصرا ميزه عن المخلوق من عنصر أعلى. فآدم مخلوق من طين. والملائكة مخلوقون من نور. وقدرات البشر لا تستطيع أن تعطي الأدنى شيئا أكثر من الأعلى. ولكن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يعطي ذلك ليذكرنا أن ما نأخذه ليس بقدراتنا ولكن بقدرته هو سبحانه، وقد خلق الله سبحانه المسميات وإن كنا لا نعرف وجودها وجعل الملائكة تتلقى أسماء هذه المسميات من آدم.

وأن البعض يتساءل عن وسيلة تعليم الخالق الأكرم لآدم عليه السلام. وتعليم الخالق يختلف عن تعليم الخلق. لأن الخالق يعلم إلهاما. يقذف في قلب آدم أسماء المسميات كلها لكل ما في الكون من أسماء المخلوقات. إذن فالمشهد الأول. لآدم مع الملائكة. كان قد تم إيجاد كل المسميات وألهمها الله لآدم. بدليل أن الملائكة لم تتعرف على هذه المسميات. بينما عرفها آدم.

"وهنا لابد لنا من وقفة. إن الكلام هو ناتج السمع. واللغة ناتج البيئة، والله سبحانه وتعالى علم آدم الأسماء. وهذا العلم لا اللغة ليست وراثة ولا جنسا ولا بيئة. ولكنها محاكاة يسمعها الإنسان فينطق بها. وإذا لم يسمع الإنسان شيئا وكان أصم فإنه لا يستطيع النطق بحرف واحد. فإذا كان آدم قد نطق بهذه الأسماء. فلابد أنه سمع من الله سبحانه وتعالى.

"والعجيب أن الطريقة التي علم الله سبحانه وتعالى آدم بها. هي الطريقة نفسها التي تتبعها البشرية إلى يومنا هذا. فأنت لا تعلم الطفل بأن تقص عليه الأفعال. ولكن لابد أن يبدأ تعليمه بالأسماء والمسميات. تقول له: هذا كوب. وهذا جبل وهذا بحر. وهذه شمس. وهذا قمر. وبعد أن يتعلم المسميات. يستطيع أن يعرف الأفعال. ويتقدم في التعليم بعد ذلك. وهكذا نتعرف على النشأة الأولى للكلام. وطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى علمت آدم الأسماء. وهنا نتوقف لنجيب عن سؤالين: الأول: إذا كان الله سبحانه وتعالى قد علم آدم الأسماء كلها. فهل كان فيها أسماء ما سيستجد من مخترعات في العالم؟ نقول: إنه حتى لو تعلم آدم الأسماء التي يحتاج إليها في أولويات الوجود ويستخدمها في متطلبات حياته على الأرض. فإذا جد جديد، فإن أولاد آدم يستخدمون هذه الأسماء من المقدمات والأسماء التي تعلموها. فما يجد في الوجود من أسماء. تدخل على اللغة. لم تأت من فراغ. وإنما جاءت من اللغة التي تنطق بها وتكتب بها. كذلك كل شيء في هذا الكون. لو أعدته الآن إلى أصله. تجد أن أصله من الله. فلو أعدت البشرية إلى أصلها لابد أن تصل إلى أن الإنسان الأول خلقه الله سبحانه وتعالى. ولو أعدت العلم إلى أصله. وكل علم يحتاج إلى معلم. نقول لك.. من الذي علم المعلم الأول. أليس من البديهي أن العلم بدأ بمعلم علمه الله سبحانه وتعالى.

وكان هذا هو المعلم الأول.. إذن فالذي علم الأسماء لآدم هو الله سبحانه وتعالى. وهو علمها لأولاده. وأولاده علموها لأولادهم وهكذا.

وهكذا أيضا علم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها. ثم عرضهم على الملائكة وقال لهم: **﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هؤلاء إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**؟ أي أن الله سبحانه وتعالى كرَّم آدم في العلم. وأعطاه علما لم يعطه للملائكة. ثم جعل آدم هو الذي يعلمهم أسماء مسميات لم يعرفوها. وهذا دليل على طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى. يفعل ما يشاء في كونه. وكما قلنا إن تمييز الأدنى عن الأعلى. لا يتم إلا بفعل الله وحده."[1]

أجاب للشيخ في كلامه السابق عن عدة أسئلة ـــ أشرت إليها آنفا ـــ هي:

١- ما حكم الأشياء التي لم يعرضها الله علي آدم من الاكتشافات المعاصرة لبنيه بعده؟

الإجابة: أنه لم يعلمه أسماء الأشياء التي عرضها عليه فحسب؛ بل علمه القدرة علي التسمية، أي أقدره علي الترميز الصوتي للأشياء، ثم ورثها بنوه فسموا كل جديد لديهم.

٢- كيف علم الله آدم الأسماء هل كلمه أم أوحي إليه؟

الإجابة: علمه بالوحي فجاءه في شكل صوت مسمع، فاللغة أصوات تُتَلقَّى بالسمع.

٣- هل القدرة علي الترميز الصوتي مقدرة متوارثة لدى البشر؛ فتصبح اللغة ميراثا بينهم ؟

الإجابة: تعلم آدم الترميز الصوتي وأورثه بنيه. لذا فاللغة مكتسبة بالتعلم وميراثا لما تعلم.

٤- أين عجز الملائكة في هذا الموقف؟ وبم أبدلهم الله سبحانه؟

كان عجز الملائكة في عدم قدرتهم علي تسمية الأشياء أي الترميز الصوتي لها، فهم يعرفون الأشياء بشكلها وخصائصها دون أن يعرفوا لها اسما، وقد أبدلهم الله بقدرات أخرى لا نعلمها تمكنهم من التعرف على تلك الأشياء، فقد رُفع عنهم الحجب في كثير من الأمر، فأبصروا ما لم نبصره نحن؛ فلا حاجة لهم للترميز.

---

(١) من موقع مصراوي بالشبكة العنكبوتية (ألنت)

٣ــ رأي د. وفاء البيه:

يعرض د.وفاء البيه تفسيرا لقوله تعالى: **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** [البقرة:٣١]، ولكن من جانب جديد يبين قيمة الفعل (علم) بقوله "أحد معاني هذه الآية الكريمة يفسر لنا أن الكلام هو أهم القدرات الرئيسية الفذة التي وهبها الله سبحانه وتعالى للإنسان، ليستطيع أن يدرك ويفكر ويعبر عن معاني أو مدلولات ما في ذهنه من الأفكار، وما حوله من مظاهر وعما يحس به من انفعالات حسية أو معنوية. يتم ذلك بواسطة مجموعة من الرموز والصور الصوتية التي تمثل المعاني المختلفة، وذلك من خلال ظاهرة صوتية حقيقية محسوسة أو حدث واقعي أو تعبير صوتي ظاهر ألا وهو نطق أصوات لغة الكلام."[(١)] هذا الرأي ينطلق من النظر إلي التكوين الفسيولوجي للإنسان منذ بداية خلقه في رحم أمه دون أي إشارة إلي الإنسان الأول.

ثانيا: نشأة اللغة في الأساطير

تعددت الجهود وكثرت الآراء حول نشأة اللغة في العصور السابقة؛ إلي الحد الذي جعلها تأخذ طابعا أسطوريا، لتجيب عن سؤال واحد؛ كيف كانت لغة الإنسان الأول؟ في تلك العصور الماضية التي لا يملك الإنسان تفسيرا ماديا لعملية كلامه؛ فيجلس كصاحب مكانة ما ليجيب عن كل سؤال يُطرح عليه؛ بإجابة قد لا يكون مقتنعا بها هو، لكنه لا بد أن يجيب (حتى لو كانت إجابته خاطئة) نظرا لتلك المكانة؛ ويَقْبلُ السامعُ كلامه الذي يسمعه ويصدقه لهذه المكانة وأنه ليس لديه البديل أو الدليل العلمي للرد علي المتكلم؛ لهذا أسندوا عملية نشأة اللغة لمعلم ما، لأنهم رأوا أن كل طفل يبدأ كلامه بعد أن يتعلم لغته من أبويه؛ إذن لا بد للبشر من معلم علمهم كيف يتكلمون، علي اختلاف آرائهم حول هذا المعلم. يقول وليام س. ستوكو "في أساطير قصة الخلق عند العديد من الثقافات، كان حيوان الطوطم الخير (شيء يشبه الحيوان ويتخذ كرمز مقدس) أو الروح أو الإله؛ يتحدث مع البشر

---

(١) أطلس أصوات اللغة العربية: د. وفاء البيه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، القاهرة، ص ١٢.

الأوائل، أو يترك لهم حرية إضفاء أسماء علي نباتات وحيوانات الأرض. تعتبر هكذا أساطير ساذجة ولكنها طبيعية في نفس الوقت. وهي في نمطها منطقية أيضا: فالمراقب الساذج يمكن أن يفكر باللغة فقط من حيث الكلمات التي يعرفها أحد ما.

وبالتالي يفترض المراقب لهذا الأمر أن اللغة يجب أن تكون قد أعطيت للبشر، تماما كانت قد أعطيت للأطفال، من قبل الآخر الحميد الذي يعرف مسبقا (ماذا تعني الكلمات المنطوقة).

هؤلاء الآخرون الخارقون غير مقبولين كمسلمات علمية لشرح أصل اللغة. وبالتالي سيكون السؤال للمشكك مَن عَلَّم إيلوهيمياوي Elohi) (myaweh أو الثعبان الكوني (Cosmic Serpent) أو السلحفاة (Turtle) أو الأم الأولى (First Mother) ما تعنيه كل كلمة؟ الجواب الوحيد هو لديها الثقة."[1]

نستخلص من هذا القول عدة نقاط. هي أن :

١- الأساطير تفترض معلما للغة، علم الناس تسمية الأشياء هو (طوطم، الروح ، الإله).

٢- التصور الأسطوري مقبول منطقيا؛ فكل طفل يأخذ لغته عن أبويه كمعلمين له.

٣- هذا المعلم لا بد أنه تعلم من معلم، فهو يعرف مسبقا ماذا تعني الكلمات المنطوقة.

٤- قضية وجود معلم ليست من المسلمات لتفسير أصل اللغة، بل مجرد افتراض منهم.

٥- ليعود السؤال الأول من جديد. مَن عَلّم المعلم الأول اللغة ليعلمها لبنيه من البشر؟

إنها دائرة مغلقة عجز أصحابُها عن الخروج منها؛ لعجزهم عن الاعتراف أن هناك خالقا واحدا للإنسان هو الله سبحانه وتعالى؛ خلقه وأكسبه سبل الحياة؛ وأهمها اللغة.

ثالثا: نشأة اللغة عند المحدثين

بدأت قضية نشأة اللغة تأخذ منحاً جديدا عند العلماء المحدثين، حيث اتجه البحث بهم إلي جهات علمية مستغلين الآلات والتقنيات الجديدة للوصول إلي تصور صحيح حول لغة الإنسان الأول، "إن المحاولات الحديثة لتحديد كيفية بدء استخدام اللغة تتعلق بمحاولات تفسير الوعي أو العقل. إن الكتب الأربعة الحديثة لجيرالد إيدلمان ...

(١) دليل راو تليدج لعلم السيمياء واللغويات: ٩٥

تُحَمِّلُ المسألة لعلم الأعصاب."[1] إن مسئولية تفسير نشأة اللغة بدأت تتجه ناحية علم الأعصاب لتستعين به لتفسيرها. هذا ما نسعى إلي بيانه، وهو الاستعانة بعلم الأعصاب لتفسير لنشأة اللغة؛ والاستفادة من هذه القضية في تفسير كيف تطور عمل الجهاز العصبي في معالجة اللغة، وليس تركيبه فهو ثابت منذ آدم، فالعمل يتطور ويطور اللغة معه. انطلقت دراسة العلماء لنشأة اللغة من مفاهيم راسخة لديهم، هي من يتحكم في تلك الآراء، لذا كان علينا تناول كل مفهوم علي حدة منسوبا لصاحبه، وكان أبرزها:

١- الأصل الواحد للغة (مورتي جيل مان وميرت روهلنت):

يُرجع كثيرُ من العلماء نشأة اللغة إلي أنها نشأة من أصل واحد أتت منه كل هذه اللغات، يقول مورتي جيل مان وميرت روهلنت "تشير الدراسات الحديثة في علم اللسانيات (comparative linguistics) إلي أن كل اللغات البشرية الموثقة، أو تقريبا كلها، ربما اشتقت من لغة واحدة سابقة؛ وإذا ما كان الأمر كذلك، فقد كان لهذه اللغة علي الأرجح، علي غرار كل اللغات التي لا تزال موجودة تقريبا، ترتيب أساسي للفعل (فع) والفاعل (فا) والمفعول (مف) في الجملة الخبرية (declarative sentence) من قبيل (قتل [فع] الرجل [فا] الدب [مف]). ... تشير الدراسات الحديثة في مجال علوم الوراثة (genetics) والآثار (archeology) واللسانيات (linguistics) إلي أن جميع البشر المعاصرين من الناحية السلوكية يتشاطرون أصلا مشتركا حديثا."[2]

هذا التصور للغة الإنسان الأول؛ يقترب مما قاله أصحاب الديانات السماوية، الذين قالوا: إن هناك أبا واحدا للبشرية؛ له لغة واحد ورَّثها بنيه. وحجتهم هي اتفاق أكثر اللغات في ترتيبها لبناء الجملة (فعل +فاعل + مفعول) وهذا الاتفاق اللغوي يمتد إلي اتفاق البشر المعاصرين في سلوكهم. مما يعني انطلاق اللغة والسلوك من مخ يفكر بطريقة متشابهة، ويرتب فكره في نهج واحد ويعمل بآلية واحدة.

---

(١) دليل راو تليدج لعلم السيمياء واللغويات: ٩٦

(٢) نشوء وتطور ترتيب الألفاظ: مورتي جيل مان وميرت روهلنت، مجلة الثقافة العالمية، دولة الكويت، العدد (١٧٢) ٢٠١٣. ص١٣

إن الدراسة الحديثة لنشأة اللغة أخذت تتسع في الآونة الأخيرة لتشير إلي قضايا أكبر وأعمق؛ بفضل آلياتها الحديثة، فوضعت تصورا لكيفية عمل مخ الإنسان الأول في معالجة اللغة، ودخول اللغة في مخه، وكيف يتطور المخ فسيولوجيا عبر الزمان ليستوعب كل جديد في عالمه من خلال اللغة؟ وكيف طور اللغة؟ ووسيلتهم في ذلك الأحافير التي حاولوا استنطاقها لتخرج مكنونها، فاستعانوا بالحمض النووي للأحافير للوصول إلي هذا الغرض، وهو وضع تصور عن لغة الإنسان الأول، وذلك علي الرغم من أنها أحيانا ليست أدلة قاطعة.

هذا الرأي يعني اتفاق أمخاخ البشر في معالجة اللغة، نتيجة الاتفاق في آلة التفكير، فالمخ يسلك طريقا واحدا في بناء الجملة في كل اللغات، حسب منطق واحد، أتي من طبيعة الأشياء؛ فكل حدث لا بد له من مُحْدِث؛ وشيء وقع عليه الحدث. وإن توجه الدراسات الحديثة نحو المخ بالدرس والتحليل لأصل اللغة جعلها تخرج من دائرة الأساطير إلي علم الإحاثة وهو مستوى أعمق؛ واستعانوا فيه ببنية المخ ومعالجته للغة.

٢ــ الأصل الوراثي (تشومسكي):

رأي آخر يري اللغة شيئا وراثيا يرثه الأبناء بوراثتهم لجينات الآباء "فقام كل من نعوم تشومسكي وديريك بيكرتون وستيفن بينكر بإتباع نهج مختلف تماما في هذه الأعمال حول اللغة، ... وخلُص تشومسكي في العام ١٩٥٧ إلي القول بأن الأطفال لا يمكن أن يتعلموا القواعد اللازمة لإنشاء هذه البنيات من اللغة غير المكتملة التي يسمعونها، وبالتالي لا بد أن تكون هذه القواعد راسخة وراثيا لديهم."[١]

فهم يرون أن الطفل لا يتكلم باللغة بسبب ما لديه من قواعد بسيطة يتعلمها من مجتمعه، بل لا بد أن تكون تلك القواعد راسخة في رأسه قد ورثها عن أبويه. لكنهم يسارعون بالرد علي هذا الرأي ورفضه بقولهم "ومع ذلك فإن الدراسات الراهنة لفن علم الدماغ وعلم الأعصاب لا تجد واقعا بيولوجيا مقابلا لهذه القواعد . إذ يؤكد أربعة عشر من أبرز علماء الأعصاب، ... أن الدماغ ليس حاسوبا، ولا يحتوي علي أعصاب أو وحدات قياس مخزنة مع مُخططات للكون، أو قواعد عن أي شيء بعيد مثل قواعد اللغة العالمية .

---

(١) دليل راو تليدج لعلم السيمياء واللغويات:٩٧

وهكذا يبدو من المفيد أكثر الاستماع إلي ما عند هؤلاء العلماء ليقولوه والتحقيق في احتمال تطور اللغة بشكل طبيعي في (الكائنات الحية والتي تطورت ضمن الفترة الأخيرة لظهورها) ."[1]

إن واقع بيولوجيا الدماغ لا يوجد فيه ما يؤكد وجود قواعد النحو الكلي كمكون وراثي بالمخ، فلا نجد من بين جيناته الوراثية جينا خاصا باللغة. مما تؤكد عدم وجود قواعد نحوية وراثية كما يقول علم الأعصاب وعلم الدماغ.

٣ــ لغة الإنسان الأول ولغة الحيوان (ديلان إيفانز وأوسكار زاريت):

يتشابه الإنسان في بنائه البيولوجي مع المخلوقات الأخرى لذا قالوا إنه حيوان ناطق؛ من هذا المنطلق بدأت المقارنة بين الإنسان والحيوان في كل شيء، بل حاولوا الوصول إلي لغته من خلال المقارنة بينه وبين أقرب الحيوانات شبها به وهم القردة. فنجد هذين العالمين يعرضان تصورهما عن نشأة اللغة من خلال المقارنة بين لغة الإنسان ولغة الحيوان.

فقالا "واجهت جميع الحيوانات التي تتفاعل مع بقية أعضاء نوعها بانتظام مشكلة التواصل مع الآخرين، وقد قامت الأنواع المختلفة بحل هذه المشكلة بطرق متنوعة، ...، بينما قام البشر بتطوير النظام الأكثر حذقا في التواصل بالمملكة الحيوانية؛ وهو اللغة."[2]

المخلوقات تتواصل معا من أجل الحياة والإبقاء علي نوعها بوسائل تواصل مختلفة، أما الإنسان فاختار لنفسه اللغة كوسيلة أساسية للتواصل بين النوع البشري كله، إن اللغة أفضل وسيلة علي مستوي كل المخلوقات لتحقيق التواصل، مع ملاحظة أن لكل نوع من المخلوقات وسيلته الخاصة التي تتناسب مع مهمته المكلف بها في حياته. فالموجات الصوتية أفضل وسيلة للحيتان والخفافيش، فقد تواصلوا بها معا؛ كما كانت الإشارة الحركية وسيلة التواصل المفضلة لدى مملكة النحل.

---

(١) دليل راو تليدج لعلم السيمياء واللغويات:٩٧

(٢) علم النفس التطوري: ديلان إيفانز وأوسكار زاريت تر/ أحمد موسى، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥، ط١ ،٢٠١٦م / ١١٣

لهذا كان الإعداد بيولوجيا الخاص بكل نوع من المخلوقات يقوم علي أساس :

١- المهمة المكلف بها فيؤديها طوال حياته وحياة بني جنسه.

٢- وسيلة تواصل تناسب طبيعة مهمته ليؤديها مع بني جنسه؛ ليتعايشوا معا.

أما الإنسان فإنه يولد مزودا بجهاز اكتساب اللغة، وقد قال هذا من قبل تشومسكي "يتطلب تعلم لغة بشرية واستخدامها آلية عقلية خاصة، وقد سبق أن تعرضنا للعمل الذي قام به تشومسكي، وأشار إلي أنه من المتعذر أن نتعلم بها - ما لم يكن قد برمج مسبقا لأداء ذلك - وبمعني آخر فإنه يتعين أن يولد جميع الأطفال؛ وهم مزودين ببرنامج لتعلم اللغة، ذو أغراض خاصة أو أداة اكتساب اللغة، وتعد أداة اكتساب اللغة ميزة يتفرد بها البشر." (١)

التعقيب علي ما قاله العالمان :

١- قالا "يتطلب تعلم لغة بشرية واستخدامها آلية عقلية خاصة" يفهم منه أن لغة البشر متعلمة مكتسبة، وآلتها عقل له قدرات خاصة، تشمل كل الجنس البشري ليتمكنوا من الكلام؛ لكن لا توجد داخلنا آلية عقلية، بل نشاط وظيفي للدماغ/ المخ يسمي العقل.

٢- قالا"يتعين أن يولد جميع الأطفال؛ وهم مزودين ببرنامج لتعلم اللغة" لنوسع من معني العبارة فنقول بصورة أشمل: إن كل البشر يولدون ولديهم قدرة علي التعلم (بدلا من برنامج تعلم) وهي قدرة جعلتهم مستعدين لتعلم كل أشياء عالمهم. وكل اللغات العالم.

لكن ليس لكل المخلوقات لغتنا، بل لغتنا خاصة بنا كبشر؛ يعجز عن اكتسابها كل المخلوقات، وفي الجانب الآخر يعجز كل البشر عن تعلم لغات تلك المخلوقات، وإن تعلم بعضهم بعضا من لغتنا. فـــ "علي الرغم من المحاولات الشاقة لتعلم الشمبانزي استخدام اللغة ولغة الإشارة، فإنه لم ينجح قط ... وفي المقابل يتعلم الطفل البشري آلاف الكلمات." (٢) فالطفل يتعلم لغة أمه لأنه مهيأ ومجهز بيولوجيا لاكتسابها ونطقها.

---

(١) علم النفس التطوري:١١٤

(٢) علم النفس التطوري:١١٤

وهنا نقطة الخلاف التي لم يعطها الباحثون أهمية كبيرة، فكل المخلوقات لديها مخ وقدرات متفاوتة علي التفكير، وقدرة علي إصدار الأصوات المختلفة. وقد وظَّفتها في التواصل بينها، وكل هذه القدرات لدي البشر أيضا. فيصبح السؤال، لماذا لا تتكلم المخلوقات بلغة البشر بطلاقة ولا يتكلم البشر بلغة المخلوقات بطلاقة أيضا؟

لأن لكل نوع من المخلوقات ومنهم البشر جهازه الصوتي المرتبط بجهازه العقلي، الذي ينسق مع جهازه النطقي لإنتاج الأصوات بصورة معينة لها شفرتها الخاصة المعروفة لدى أبناء هذا الجنس، مما يحقق لهم التواصل معا بسهولة. وكذلك – ومن خلال البناء التشريحي للجهاز الصوتي في كل مخلوق علي حدة – يتبين أن كل مخلوق يستخدم مناطق محددة من جهازه الصوتي لإصدار أصواته الخاصة به؛ فأصبح من الصعب أن ينطق بأصوات غيره من المخلوقات؛ وهو أيضا سر تعدد اللغة إلي لغات لاختلاف في مناطق التصويت لدى كل مجتمع لغوي بشري، وإن اتفقوا معا في بعض هذه المناطق.

إن تعاون هذه الجوانب سابقة الذكر معا للكلام هو السر في إنتاج لغة ذات طابع خاص بهذا الجنس دون غيره، هي لغتهم الخاصة، هذا التعاون يحدث في الجوانب الآتية:

١– الجانب الصوتي. ٢– الجانب العصبي.

٣– الجانب (الفسيولوجي)، فينتجوا شفرة للغتهم.

٤– المقاربة البيولوجية والثقافية (الأزهر الزناد):

يعرض الأزهر الزناد تصوره عن نشأة اللغة قائلا " إن المقاربة الموضوعية لتفسير أصل الملكة اللغوية تقوم علي اتجاهين كبيرين جامعين: الاتجاه الموسوم بالمقاربة البيولوجية والاتجاه الموسوم بالمقاربة الثقافية." [(١)] لكن ماذا يعني بالاتجاهين؟ يقول الأزهر الزناد:

"أ ــ عماد المقاربة البيولوجية:

البحث في الآليات الفسيولوجية عامة والعصبية خاصة والعرفانية الكامنة في

(١) اللغة والجسد: ٨٦

حصول الملكة اللغوية وإجرائها، ومن أسس هذا التوجه أن البشر يولدون مزودين بالملكة اللغوية في شكل ما عرف بـــالنحو الكلي، وهذه الملكة تحصل عند النوع بحكم التكيف البيولوجي المخصوص بالنوع البشري بمختلف ملكاته وعلي الأخص منها اللغة." [1]

المقصود بالجانب البيولوجي ما أشرت إليه آنفا من القدرات الفطرية الكامنة داخل التكوين البيولوجي الخاص بالإنسان، وهو الإعداد المسبق للمخ البشري للقيام بمهمته الأساسية وهي عمارة الأرض؛ المهمة التي لم يكلف بها أحد من الخلق سوى الإنسان. هذا الإعداد المسبق للإنسان تم من خلال تزويده بقدرات مختلفة؛ كان أهمها القدرة علي التعلم.ثم ظهرت أثناء عمل آلياته الفسيولوجية والعصبية والعرفانية معا داخله. فتلقي اللغة بآلة فسيولوجية وعالجها بآلة عصبية وبني لها تصورا في مخه بآلة عرفانية، فكانت هذه القدرة هي مَن صنع اللغة في مخه؛ التي أصبحت ملكة داخله سماها الملكة اللغوية؛ فأصبحت اللغة قدرة مكتسبة بالتعلم لا تُولد معه، خلافا لفكرة النحو الكلي.

والإنسان دائما في حالة تعلم واكتساب لكل ما حوله من معارف منذ قبيل ميلاده، وذلك بسبب القدرة الجينية التي لديه علي التعلم، وقدرة علي التفكير والإبداع، وإن ما لدى الإنسان من قدرة علي التعلم في تكوينه الجيني هي أساس ملكته اللغوية. إذن ليس هناك ملكة لغوية، بل قدرة فطرية علي التعلم مكنته من صنع ملكته اللغوية التي هي أصل لغته.

ب ــ عماد المقاربة الثقافية:

يقول: "العناية بالمظاهر الاجتماعية والثقافية الكامنة أساسا لنشأة الملكة اللغوية، من قبيل أنماط التفاعل بين الأفراد والمجموعات وأنماط الأبنية الاجتماعية، والتلاقي الثقافي، ما أدي إلي تطور اللغة من جهاز تواصلي بسيط إلي نظام تواصلي غاية في التعقيد، فاللغة لا تظهر في الحفريات، لكننا نستطيع تتبع تاريخها من خلال علاماتها باعتماد مظاهر الحياة المختلفة."[2] إنه يوجه أنظارنا ناحية الحفريات في محاولة لمعرفة

(١) اللغة والجسد: ٨٧

(٢) اللغة والجسد: ٨٩

لغة الإنسان الأول، فكيف تكشف لنا الحفريات هذه اللغة؛ يمكننا فعل هذا من خلال معرفة ثقافته من حفرياته وآلاته وآثاره علي الأحجار التي سجل عليها تراثه وتاريخه وثقافته ولغته. لكن المقاربة الاجتماعية والثقافية ليست أساسا لنشأة الملكة اللغوية في الإنسان؛ بل ما لديه من قدرة فطرية علي التعلم؛ مكنته من اكتساب ثقافة بيئته وسلوكيات مجتمعه، والتي دخلت إلي مخه من خلال ما صنعه وكونه فيها من لغة، بدأت بتعلمه عملية الترميز من خالقه سبحانه، وأورثها بنيه، ثم كون مجتمعاته التي تفاعل معها، ثم نَّما لغته وطورها، لأنه اجتماعي بطبعه، وضمن تكوينه البيولوجي، فاجتماعيته قدرة تضاف إلي قدراته الفطرية؛ مكنته من عمارة الأرض؛ وإنشاء مجتمعات متنوعة ومتعددة، فهو بقدرته علي التعلم استطاع أن يصنع لغته وأن يطورها ويكسبها لبنيه؛ فكانت لغته نتاج ثقافة مجتمعه وبيئته وقدراته الإبداعية، فجاءته لغة آبائه حاملة ثقافة مجتمعه وبيئته وتراثهما.

المحور الخامس: لغة الإنسان الأول (إنسان نياندرثال نموذجا)

اللغة موجودة لدى كل البشر:

لقد آمن أصحاب الديانات السماوية أن الله سبحانه وتعالى خلق الناس جميعا من آدم، وكانت له لغة يتكلم بها مع زوجته وبنيه؛ ورفض هذا الرأي آخرون، لكن العلم الحديث أثبت صحة هذا القول بما قدمه من أبحاث جديدة؛ تؤكد صحة قول أصحاب الديانات.

وقد أشار جوهانسون في دراسة له عن الإنسان الأول ولغته أن "لدى جميع التجمعات السكانية البشرية لغة ما بالتأكيد، وليس هنالك من دليل حول وجود أي فرق في القدرة اللغوية بين مختلف التجمعات السكانية البشرية الحية. وبالنظر إلي أن للغة بيولوجية ما فإن مبدأ الاقتصاد يشير إلي أنه كان للجد المشترك الأقرب لجميع البشر الحديثين لغة ما، وأنه امتلك جميع المتطلبات البيولوجية اللازمة لأغراض اللغة."[1]

هذا النص ذو أهمية قصوى، وهو منطلقنا لدراسة هذا المحور لأنه يشير إلي أن:

١- المجتمعات القديمة والحديثة كان لها لغة يتكلم بها أبناؤها ويتواصلون بها ويتفاعلون.

---

(١) إنسان نياندرثال: ص١٣٥

٢- لا فرق في القدرة اللغوية الكامنة في أمخاخ البشر جميعا، فقدرتهم اللغوية واحدة.

٣- من الناحية البيولوجية:

أ - الجد المشترك لكل البشرية كانت له لغة ما يتواصل بها.

ب- هذا الجد كان لديه التكوين البيولوجي اللازم لإنتاج اللغة.

هذه النتائج تؤكد ما قلناه آنفا من أننا جميعا جئنا من جد مشترك، وأنه كان يتكلم لغة ما، وأن بناءه البيولوجي يحوي جميع المتطلبات اللازمة لأغراض الكلام. إنه مهيأ بيولوجيا للكلام، فلديه الإمكانيات التي تمكنه من الكلام داخل بنائه البيولوجي.

لكن جوهانسون يناقض كلامه السابق بهذا القول "يعد استخدام الإنسان الحديث اللغة والكلام وعدم استخدام أجدادنا البعيدين للغة حقيقتين لا جدل حولهما. لكن ليس هنالك من إجماع حول زمن حصول المرحلة الانتقائية التي نقلت البشر من حالة اللا لغة إلي حالة اللغة. كما أنه ما من إجماع حول نوع مستخدمي اللغة الأولين. يري بعض المؤلفين أن اللغة مجال حصري للإنسان الحديث تشريحيا، في حين يناقش آخرون وجود شكل ما علي الأقل من اللغة الأصلية ـــ إن لم نقل لغة حديثة ـــ لدى الأجناس المبكرة"[١] إنه يشكك في وجود لغة لدى الإنسان الأول، ويعود ليشير إلي أنه لا يوجد إجماع علي ذلك.

بداية اللغة البشرية:

١- "لا أحد يعرف متى تطورت اللغة البشرية ولكن اتفق الكل علي أنها ظهرت منذ ١٠٠٠٠٠ عام تقريبا استنادا إلي الدليل الذي وجد لبشر يشبهوننا تماما، إلا أن قلة من الباحثين يرجعون ظهور اللغة إلي وقت قبل ذلك بمدة كبيرة، أكثر من مليون عام وهو الوقت الذي عاشه أسلافنا، لاشك أن الموضوع قابل للجدل والنقاش وخاصة أننا لا نملك دليلا عمليا مؤكدا عليه."[٢]

٢- الصوت دليل الأصل الواحد للبشر: هذا ما قدمته د.ماري شهرستان كدليل علي عمق الوحدة اللغوية للبشرية، تقول "من خلال المعاني العالمية لأصوات الكلام

---

(١) إنسان نياندرثال: ص١٣٤

(٢) أساسيات اللغة: ر. ل. تراسك، تر/ رانيا إبراهيم يوسف، المشروع القومي للترجمة، ط/١، ٢٠٠٣، ص٢٩

النموذجية الأصلية المشتركة بين جميع اللغات، والآتية من عمق العصور، يمكننا أن نفسر القدرة الاتصالية والخلاقة (للفعل) ؛ والفعل ـــ هنا ـــ بمعني لغة.

إنها الأصوات – أي أصوات الكلام – هي التي تسمح لنا باكتشاف مدى عمق الوحدة اللغوية البشرية، التي ظلت –حتى الآن – مغمورة؛ بسبب تنوع ثغثغة اللغات، إن التحليل الصوتي والمعنوي، الذي أجري بين أعوام١٩٦٠ و١٩٧٩، علي عشرة لغات ميتة، و٤٠ لغة حية، يبين لنا أنه يوجد ـــ فقط ـــ ٢٠ صوت من أصوات الكلام النموذجية مشتركة في جميع اللغات المدروسة، وقد أثبتوا هذا التحليل في أعوام ١٩٧و ١٩٩٨، وذلك بالتوسع في حوالي ٣٠٠ لغة و٨٠ منها ميتة ... إن أصوات الكلام هذه هي واحدة عند جميع البشر، الذين اكتسبوا خاصية الكلام المنطوق."[١]

إنسان نياندرثال نموذجا:

أ– ظهور إنسان نياندرثال:

أظهرت الأحافير إنسانا قادما من الماضي السحيق هو إنسان نياندرثال؛ هذا الإنسان له "مكانة مفتاحية في هذا الجدل من حيث إنه يشكل فرعا جانبيا أساسيا ومتأخرا في التطور الإنساني، ويمتلك صفات شبه إنسانية في جوانب أخرى، لا سيما في الدماغ، وهو علي الأقل بحجم دماغنا اليوم. وقد ناقشت العديد من الأوراق علي مدى عدة سنوات قدرات إنسان نياندرثال علي استخدام اللغة والكلام ... سأعمل في هذه الورقة علي استكشاف ما تستطيع كل من الأدلة الأحفورية والأثرية والجينية وأدلة أخرى قوله، وما لا يستطيع قوله حول لغة إنسان نياندرثال. "[٢]

لكن ما حقيقة إنسان نياندرثال الذي وجد قبل التاريخ؟ ولماذا ندرسه؟ إنه يحمل لنا إجابات كثيرة حول حقيقة لغة هذا الإنسان؛ كيف كانت؟ ومما تتكون؟ هل حقا كان يتكلم؟ هل الجانب العصبي في بنيته باق في أحافيره؟ هل يمكن الوصول إلي هذا الجانب لمعرفة دوره في عملية الكلام؟ هل البحث عنه في الأحافير ستوصلنا إلي نتائج علمية يعتد بها حول الإجابة عن الأسئلة السابقة؟ إنه جدل سنجيب عنه في الأوراق التالية.

---

(١) الإنسان ولغته من الأصوات إلي اللغة (الكلام):٥٦ ـــ ٥٧

(٢) إنسان نياندرثال: ص١٣٤

ب- أصل إنسان نياندرثال:

١ــ اعتبره ماري شهرستان إنسانا متذمرا وغير متكلم؛ فقال "البشر الذين لم يتكلموا" (ابن عمنا المتذمر النياندیرتالي) ظهر قبل ٣٠٠٠٠٠ سنة الإنسان النياندیرتالنسيس، أو النياندیرتالي، الذي لم يتكلم، لكنه كان يتذمر. ولفظة نياندیرتاليان أتت من اسم موقع باسمه، بالقُرب من دوسيلدورف، في ألمانيا، حيث اكتشف أول بقايا أحفورية لهذا النوع من البشر. وبالرغم من كبر حجم قحفه، فإن ابن عمنا هذا لم يكن باستطاعته الكلام، وذلك بسبب الشكل التشريحي لحفرته الفموية، ولضعف التروية الدماغية في مستوى مناطق الكلام، فهو لم يكن يتخذ الوضعية العامودية إلا بشكل مؤقت، ... وقبل حوالي ١٤٠٠٠٠ عام كان النياندیرتالي موجودا في السهل والحوض الباريزي، وهو - في الوقت نفسه - الإنسان العارف. وأصبح موجودا في كل أوروبا قبل حوالي ٨٠٠٠٠ عام، حيث كان يعيش - جنبا إلي جنب - مع العارف، دون أن تحدث بينهم حرب، ظاهريا علي الأقل. وقبل ٧٠٠٠٠ عام؛ أصبح موجودا في العراق."[١]

٢ــ وقال عنهم ر.ل. تراسك "هم أناس يتميزون بقصر القامة وامتلاء الجسم بصورة واضحة وكانوا يسكنون أوروبا الغربية منذ ما يقرب من ٣٥٠٠٠ عام قبل أن يختفوا فجأة ويبدو أن اختفاءهم هذا كان بسبب ما وقع عليهم من ضغط من قبل أسلافنا".[٢]

٣ــ يقول عنهم لويجى لوقا كافللى "اعتقد البعض أن النياندرتال هم الأسلاف المباشرون للإنسان المعاصر، ورأي البعض أنهم نوع منقرض من ضرب بشري أقدم، ومن الممكن أن تحسم هذه القضية بتحليل دنا النياندرتال."[٣]

٤ــ وقدم سفيركر جوهانسون دراسة جادة متخصصة عنهم بعنوان (إنسان نياندرثال الناطق) فاعتبره متكلما؛ عكس ما قاله ماري شهرستان عنهم أنهم لا

---

(١) الإنسان ولغته من الأصوات إلي اللغة (الكلام):٥٣ ــ ٥٤

(٢) أساسيات اللغة:٢٩

(٣) الجينات والشعوب واللغات: لويجى لوقا كافللى ت د. أحمد مستجير، المشروع القومي للترجمة٢٠٠٤ ص٤٩

يتكلمون. فيبدأ كلامه بهذا السؤال: هل كان لديه لغة ما؟ يقول "لقد دخلت هذه المسألة في نقاش محتدم لعقود ولما يتم الوصول إلي قرار جازم فيها، غير أن أدلة جديدة توافرت في السنوات المنصرمة. فقد ألقت المكتشفات الأحفوية والأثرية الضوء علي جوانب من تشريح إنسان نياندرثال وسلوكياته ذات الصلة. تعمل الأدلة الجديدة للحمض النووي DNA ــ أحفوريا كان أم حديثا ــ علي تأمين البنية حول العلاقة القائمة بين إنسان نياندرثال والإنسان الحديث. وحول أصول اللغة. وسأخلص إلي أن رجحان الأدلة يدعم علي أقل تقدير وجود لغة أصلية (Proto – language) محكية ذات دلالات معجمية (lexical semantics) لدى إنسان نياندرثال."[١]

إنه يعيد دراسة هذا الإنسان ولكن من خلال نتائج جديدة قدمتها له علوم كثيرة درست أحافير هذا الإنسان، تعد من أحدث الدراسات في هذا المجال، لغرض تقديم الجديد حول حقيقة هذا الإنسان. إنه يبني تصوره عن لغة هذا الإنسان علي أساس "وجود شكل ما علي الأقل من اللغة الأصلية – إن لم نقل لغة حديثة كاملة – لدى الأجناس المبكرة."[٢] أي أن لغات البشر كلها تعود إلي لغة أصلية واحدة أتت منها.

كيف نصل إلي لغة إنسان نياندرثال؟

السؤال طبيعي هنا؛ وهو كيف لنا أن نعيد تشكيل قدرات إنسان نياندرثال التي مكنته من الكلام؟ أي قدرته اللغوية، لنتعرف علي لغته ونقارنها بلغة الإنسان الحديث. إنه من الأمور الصعوبة لأن اللغة "لا تتحول إلي أحفورة كما تشير الأوراق تقريبا التي نشرت حول موضوع اللغة في فترات ما قبل التاريخ، وهكذا فإن الدليل المتعلق بلغة إنسان نياندرثال هو بالضرورة غير مباشر، وإن العمل علي مد الجسور بين النظريات ضروري من أجل الاستدلال حول وجود أو غياب اللغة عند الأنواع المنقرضة."[٣]

فما الدليل الذي يمكننا من الوصول إلي لغة هذا الإنسان المتحجر؟ أو قل "ما أنواع الظواهر التي قد تعطينا معلومات حول السمات اللغوية لإنسان نياندرثال؟

---

(١) إنسان نياندرثال: ١٣٣
(٢) إنسان نياندرثال: ١٣٤
(٣) إنسان نياندرثال: ١٣٥

عندما نحاول أن نحدد فيما إذا امتلك إنسان نياندرثال اللغة في غياب الدليل المباشر، فإننا نحتاج إلي بدائل للغة قابلة للاستخدام، أو بدائل لسمات لغوية محددة"[1] فما معايير هذا البديل؟

المعايير الواجب توافرها في البديل:

١- "يجب علي توزيع البديل بين الأجناس الحية أن يتزامن مع توزيع اللغة، حيث لا تعتبر سمة ما يتشاركها البشر وأشباههم، الذين لا يملكون لغة علي أنها بديل صالح للغة. يعمل هذا المعيار علي استبعاد أجزاء من ملكة اللغة بالمعني العام، علي سبيل المثال معظم أوجه إدراك الأصوات، والخلايا العصبية العاكسة." [2] يجب في البديل ألا يكون مشتركا مع البشر وأشباههم، كالتشابه في الإدراك الصوتي والخلايا العصبية العاكسة لهم.

٢- "يجب أن تكون حالة البديل لدى إنسان نياندرثال معروفة، أي سمة محفوظة في الأحافير أو الآثار. يعمل هذا المعيار علي استبعاد معظم السمات الرخوة وتلك السمات التي لا تترك آثارا ملحوظة وفقا لعلم الآثار." [3]

هذه البدائل تتمثل في ما يأتي:

أ- الأحافير:

إذا مات المرء ومضي علي موته آلاف الأعوام؛ فإن جسده يصبح أحافير أي مجموعة من العظام، لكن هل تحفظ الأحافير لغته؟ من المحتمل أن نصل إليها؛ فالحقيقة أنه "ينعكس استخدامنا للغة المحكية في جوانب معينة من تشريحنا، وهي تلك الجوانب التي من الممكن دراستها في الأحافير، ومن المحتمل أن نجد التكيفات الكلامية في أعضاء الكلام وأعضاء السمع والدماغ لدينا، وأيضا في الوصلات العصبية التي تربط هذه الأعضاء بعضها ببعض."[4] لهذا يمكننا بناء تصور عن لغته من أحافيره بدراسة كل من:

---

(١) إنسان نياندرثال: ١٤١

(٢) إنسان نياندرثال: ١٤٢

(٣) إنسان نياندرثال: ١٤١

(٤) إنسان نياندرثال: ١٤٣

١/ أ– أعضاء الكلام:

"تتكون المسالك الصوتية بحد ذاتها من أنسجة رخوة لا تتحول لأحافير، ولكن يرتبط شكلها بشكل العظام المحيطة بها: أي قاعدة الجمجمة والعظم اللامي امتلك الهومو إريكتوس بالفعل قاعدة جمجمة شبيهة بتلك الحديثة ... كما تؤثر العوامل الأخرى الداخلة في تشكيل المسالك الصوتية، وبخاصة حجم الدماغ وحجم الوجه بقوة في شكل قاعدة الجمجمة. نادرا ما توجد العظام اللامية في الأحافير كونها ليست متصلة مع باقي الهيكل العظمي، لكن عظمة لامية واحدة وجدت لإنسان نياندرثال، وقد تم نسبتها لهوموهايدلبرجينسيس. تقع جميع هذه العظام اللامية العائدة لسلالة نياندرثال ضمن نطاق تباينات العظام اللامية للإنسان الحديث، وهو ما يقودنا إلي النتيجة القائلة إن إنسان نياندرثال امتلك مسالك صوتية تناسب الكلام." (١)

إن وجود العظام التي تكسو الأجزاء الرخوة الخاصة بالكلام في الأحافير؛ أقنعنا أن إنسان نياندرثال تكلم لوجود هذه العظام في أحافيره كما في عظام الإنسان الحديث.

٢/ أ– الأعضاء السمعية:

"تتشارك الرئيسيات في عمليات المعالجة الصوتية الأساسية، ومن بينها إدراك النغمات الكلامية ... إن وجود هذه العمليات لدى إنسان نياندرثال مرجح إلي حد كبير ... يبدو أن بعض التوليف الدقيق يأخذ مساحة ما من خلال التطور الإنساني لكي يحسن من إدراك الكلام، وبخاصة إدراكنا المحسن للأصوات التي تتراوح في مدى ٢ ــ ٤ كيلو هرتز ... يأتي هذا بشكل أساسي بسبب التغيرات الطفيفة التي حصلت للعظيمات الأدنية. وهي تلك العظام الدقيقة التي تنقل الصوت من طبلة الأذن الداخلية من المرجح اعتبار هذا الاختلاف علي أنه تكيف من أجل إدراك الكلام ... لقد كانت تلك التغيرات في العظيمات موجودة بالفعل في الأحافير التي تعود لمدة ٤٠٠ ألف عام، والتي وجدت في سيما دي لوس هيوسوس في أسبانيا، والتي تشكل علي الأرجح أجداد لإنسان نياندرثال. وقد وجدت عظيمات أذنية في الشرق الأوسط تعود لإنسان نياندرثال ولهوموسابينر مبكر، وبالمثل دون اختلافات ذات

(١) إنسان نياندرثال: ١٤٥ ــ ١٤٦

معني عن الإنسان الحديث"[1] إن وجود عظيمات أذنية في أحافيره يعني أنه كان يسمع؛ فهو يتكلم لغة ما ويسمعها.

٣/ أ- الوصلات العصبية:

هذا الجزء هو هدفنا من دراسة تلك الأحافير، فهو يبين الصلة بين الأحافير واللغة والجهاز العصبي لإنسان نياندرثال الفاني الذي لم يبق منه إلا أحافيره، فكيف نربط بين هذه الأشياء الثلاثة (اللغة. الأحافير. الجهاز العصبي)؟

يشير جوهانسون إلي كيفية ذلك في قوله "من الممكن رؤية الثقب الذي تمر عبره الأعصاب من خلال العظام في الأحافير المحفوظة بشكل جيد. تؤمن هذه القنوات تقديرا مبدئيا لحجم الأعصاب التي مرت من خلال هذه الثقوب؛ حيث يعني العصب الأثخن خلايا عصبية أكثر مما يجعلنا نفترض حساسية وتحكما أكثر تطورا ... من الممكن وضع فرضية أفضل لأعصاب القفص الصدري التي يفترض أنها تختص بالتحكم بعملية التنفس يمتلك كل من الإنسان الحديث وإنسان نياندرثال قنوات واسعة في هذه المنطقة في حين أن لدى الهومو إغاستر قنوات ضيقة تعد نمطية عند القردة الأخرى، مما يدل علي أن تلك القنوات قد توسعت في زمان ما يقع بين 0.5 و1.5 مليون عام مضى."[2]

إنه يقدم حجم الثقب الذي تمر عبره الأعصاب في أحافير إنسان نياندرثال؛ كدليل علي وجود قنوات واسعة (أعصاب أكبر حجما) تمر منه في القفص الصدري التي تختص بعملية التنفس كما في الإنسان الحديث؛ في مقابل وجود قنوات ضيقة عند القردة، فهو يستنتج من وجود الثقب الواسع عند إنسان نياندرثال أن صدره أوسع، مما يجعله يضخ كما كبيرا من الهواء أثناء التنفس؛ ليتمكن من الكلام، فهو يختزن كما كبيرا من الهواء، ثم يتحكم في إخراجه، ليتمكن من الكلام، إذن فهو كان يمتلك لغة.

٤/ أ- الدماغ:

يستفيد جوهانسون من كبر حجم دماغ إنسان نياندرثال؛ ليشير إلي تشابه بينه وبين الإنسان الحديث، خصوصا في منطقة بروكا وهي خاصة باللغة، مما يدل علي أنه

---

(١) إنسان نياندرثال: ١٤٧

(٢) إنسان نياندرثال: ١٤٨

كان يملك لغة، يقول "من الممكن الاستدلال علي الحجم العام للدماغ وشكله والتشريح الكلي لسطح الدماغ من الجماجم الأحفورية المحفوظة بشكل جيد، ... إن دماغ إنسان نياندرثال يبلغ حجم دماغ الإنسان الحديث، لكنه متباين في شكله، ... يشترك كل من إنسان نياندرثال والإنسان الحديث تشريحيا في الاتساع الجبهي حول منطقة بروكا منذ حوالي مليوني عام مما يضيف بعضا من الدعم لقضية لغة إنسان نياندرثال. غير أن القرود الأخرى لديها بنية دماغية تشبه التشريح الإجمالي لدى بروكا وويرنيك علي حد سواء وبهذا لا يعد هذا الدعم غاية في القوة." [١]

هناك رأي مخالف لذلك أتي من أحافير إنسان نياندرثال، أنه يختلف عن الإنسان الحديث في حجم الجمجمة، مما يدل علي عدم قدرته علي الكلام. يقول ر.ل. تراسك "قدم فيليب ليبرمان وإدموندكريلين شكلا للجهاز الصوتي للنياندرتالى عن طريق استخدام حفرية لجمجمة أحدهم، كان الشكل مخالفا تماما لجهازنا الصوتي وقريبا لذلك الخاص بالشمبانزي، لذلك انتهى كل منهما إلي أن النياندرتاليين كانوا غير قادرين علي إصدار الكم المناسب من الأصوات ومن هنا فهم غير قدرين علي الكلام." [٢] ثم يرد هذا الرأي قائلا "بالرغم من روعة المحاولة التي قام بها ليبرمان وكريلين إلا أن نتائجهما لم تسلم من الهجوم العنيف الذي أقر بخطأ هذه النتائج وقدم أدلة علي عدة علي ذلك. أولها: تعرض تلك الجمجمة لتجارب عدة مما تسبب في تهشمها، وثانيها: إمكانية إعادة تركيبها والخروج منها بشكل جديد كل مرة – غير الشكل الذي توصل إليه ليبرمان وكريلين – وقد ينتج من أحد هذه الأشكال جهاز صوتي يشبه ذلك الخاص بإنسان العصر الحالي، كما ذكر بعض النقاد أن الشكل الذي قدماه لم يكن يسمح لصاحب الجمجمة أن يفتح فمه. "[٣]

خلاصات تشريحية:

ويجمل جوهانسون خلاصة رأيه وما توصل إليه من نتائج حول أحافير إنسان نياندرثال في قوله "يشير الدليل الأحفوري التشريحي ختاما إلي أن بعض التكيفات

---

(١) إنسان نياندرثال: ١٤٨
(٢) أساسيات اللغة: ٢٩
(٣) أساسيات اللغة: ٢٩

الكلامية كانت علي أقل تقدير موجودة لدى إنسان نياندرثال، لكن ما من واحد من هذه المؤشرات يعد مؤشرا دامغا وحده، غير أن توافق بعضها مع البعض الآخر يعزز الحجة لوجود شكل ما من أشكال الكلام لدي إنسان نياندرثال، ويبقي أن القليل الذي نعرفه عن دماغ إنسان نياندرثال، هو علي الأقل متوافق مع وجود اللغة. لكن دعم هذه الفرضية ضعيف تماما." [1]

ب ـ المورثات :

١/ ب ــ الحمض النووي:

"تم خلال التسعينات من القرن العشرين تطوير أساليب تضخيم الحمض النووي إلي الدرجة التي أصبحت تسمح باسترجاع وسلسلة حتى أقل كميات الحمض النووي المحفوظة في الأحافير. لا يزال المدى محددا إلي ١٠٠ألف عام مضى أو نحوه، وبعد هذا الحد يصبح الحمض النووي أكثر تحللا من أن يتم استرجاعه. كما أنه محدود بوجوده في مناخات باردة، تكفي هذه الشروط لجعل إنسان نياندرثال في متناولنا."[2] لهذا نقول هل يمكن الاستدلال من الحمض النووي علي وجود لغة لدى إنسان نياندرثال؟

يقول جوهانسون: "من الممكن أن نستخدم الحمض النووي العائد لإنسان نياندرثال من أجل الاستدلال علي العلاقة الدقيقة القائمة ما بين إنسان نياندرثال والإنسان الحديث، وعلي حد سواء من أجل تحديد اشتراك إنسان نياندرثال بامتلاك أي من الموروثات ذات العلاقة باللغة التي توجد في الإنسان الحديث. إن المورث المرتبط باللغة، والذي حاز معظم الانتباه هو مورث (FOXP2) غير أنه ليس المورث الوحيد. حيث إن هنالك مساهمة جينية جوهرية بشكل عام في القدرات اللغوية البشرية اليوم مع اشتراك العديد من المورثات، لكن تبقي التفاصيل الجينية غير مفهومة جيدا."[3]

نتائج دراسة الحمض النووي:

"دعمت الأدلة الجينية المبكرة المستقاة من الحمض النووي الميتاكوندري الأحفوري لإنسان نياندرثال بوضوح انفصال إنسان نياندرثال عن الهومو سابيتز،

---

(١) إنسان نياندرثال: ١٥١

(٢) إنسان نياندرثال:١٥١

(٣) إنسان نياندرثال: ١٥١

وهي أشارت إلي أن الجد المشترك الأخير للنوعين عاش ما قبل ٤٠٠ألف عام علي الأقل ...، تم أخيرا تقديم مسودة سلسلة الجيوم الكامل لدى إنسان نياندرثال، حيث وجدت أوجه تشابه مهمة بين سلسلة إنسان نياندرثال وسلسلة الأوراسيين الحديثين. يفسر جرين وآخرون هذا التشابه علي أنه دليل قوي حيال انتقال المورثات من إنسان نياندرثال إلي الجد المشترك للإنسان الأوراسي الحديث قبل حوالي ١٠٠ ألف عام"[١]

٢/ ب– FOXP2:

"عندما تم اكتشاف أن التحورات في المورث (FOXP2) ترتبط باختلالات لغوية معينة، وعندما تبين أن هذا المورث تعرض لتغيرات علي طول السلالة البشرية تم إعلانه علي أنه (مورث اللغة) ... إن التغيرات التي شهدها مورث (FOXP2) في السلالة البشرية ترتبط غالبا ببعض أوجه اللغة حتى ولو كان هذا الارتباط ليس مباشرا بشكل وثيق ... تظهر أوجه القصور لدى الأناس الذين لديهم تحور في مورث (FOXP2) علي أنها تنطوي علي مشاكل كلامية حركية ومشاكل مع اللغة بحد ذاتها علي حد سواء. يبدو أوجه العجز اللغوي مشابهة لحبسة بروكا وهو ما قد يشير إلي أن مورث (FOXP2) معني بالنحو." [٢]

هل مورث (FOXP2) موجود في لغة إنسان نياندرثال:

"نري أن الصيغة البشرية المشتقة لمورث (FOXP2) موجودة أيضا في الحمض النووي الأحفوري لإنسان نياندرثال." [٣]

أثر مورث (FOXP2) علي لغة إنسان نياندرثال:

" لقد أحدث هذا المورث كثيرا من الحماسة والتهويل عن اكتشافه، لكن، وبشكل عام، ليس هناك في علم الأحياء أي شيء من قبيل المورث الخاص بسمة مركبة المقترن بتغير جيني مفرد أعطي اللغة، وعلي النقيض مثلا، يري تشومسكي (Chomsky 2010) أن العلاقة ما بين المورثات والنمط الظاهري هي أكثر تعقيدا وليست مباشرة.

---

(١) إنسان نياندرثال: ١٥١ ــ١٥٢

(٢) إنسان نياندرثال: ١٥٢

(٣) إنسان نياندرثال: ١٥٢

غير أن البحث المتأني أنتج علي الرغم من ذلك قضية جيدة لمورث (FOXP2) الذي يدخل في نشوء وتطور التعابير الصوتية في العديد من الأنواع المختلفة وللتغييرات في النسخة البشرية من مورث (FOXP2) الذي يتعلق بشكل ما باللغة. لا يعدو وجود مورث (FOXP2) البشري في إنسان نياندرثال دليلا غير خلافي علي الإطلاق يشير إلي أن إنسان نياندرثال امتلك لغة مركبة، لكنه يضيف بعض الأرجحية الإضافية إلي قضية لغة إنسا نياندرثال، ويبدو أن مورث (FOXP2) يؤدي دورا في الكلام والنحو علي حد سواء، ولا يزال تفسير وجوده عند إنسان نياندرثال ملتبسا.

كما هو معروف فإن التسلسل الجيني للمورثات ذات الترميز البروتيني، مثل (FOXP2)، ليس بأي حال من الأحوال المحدد الوحيد لسمات كائن حي ما. وبداية فإن معظم الحمض النووي لدينا **تنظيمي** ينطوي علي شبكة معقدة تنظم زمان ومكان تعبير أقلية الترميز البروتيني للحمض النووي (ENCODE2012) ... ليس لدينا أي معلومات مباشرة حول أنماط التعبير لمورثات إنسان نياندرثال، ولكن بالنظر إلي الدليل المقارن المتوافر، فإن طرح اقتراح يقول إن مورث (FOXP2) قد يعمل شيئا ما مختلفا تماما لدى إنسان نياندرثال عما هو لدى الإنسان الحديث." [1]

ج ـ الآثار:

يتجه جوهانسون إلي أشياء غير مباشرة أيضا لتلمس لغة إنسان نياندرثال قدمها له العلم الحديث حوله من خلال آثاره. يقول "لا تظهر اللغة بحد ذاتها بشكل أثري، ومن الممكن أن يتم استخدامها كمؤشرات علي الوصول إلي درجة ما من القدرات السيميائية، تشيع عادة الاستعانة بالفن القديم بما فيه من الأصباغ والزخارف الشخصية كمؤشرات علي أن اللغة قد تطورت ... لكن تبقي أي استدلالات نستقيها من الآثار لتشير إلي القدرات العقلية والمعرفية هشة، لا سيما أن لجميع التجمعات السكانية الحية ذات القدرات العقلية والمعرفية بما فيها اللغة، لكن توجد اختلافات هائلة حول نوع الآثار المرئية بحسب علم الآثار التي قد تتركها الثقافات المختلفة." [2]

---

(١) إنسان نياندرثال: ١٥٣

(٢) إنسان نياندرثال: ١٥٣

الخلاصة:

لقد استعنا بإنسان نياندرثال بحثا عن اللغة لدى الإنسان في الماضي السحيق من خلال أحافيره، وعن طريق جهازه العصبي الذي وجدنا آثاره ضمن أحافيره، ليعطينا الأمل في أن نصل يوما ما إلي دليل مادي علمي علي أن آدم عليه السلام كان يمتلك لغة، وأن لجهازه العصبي دورا فعَّالا في عملية كلامه؛ وذلك بفضل المعلومات المحفوظة في أحافيره. هنا تظهر علاقة غير مباشرة بين الأحافير ولغة الإنسان الأول وجهازه العصبي. لدينا أمل في إثبات أن آدم عليه السلام كان تكلم لغة ما بناءًا علي بناءً حقائق علمية:

١- عدم وجود دليل مادي ينفي هذا القول، ويؤكد عدم وجود لغة لدى أقدم إنسان.

٢- لم ينته البحث عن الأحافير، و لم تظهر آخر أحفورة فنفقد الأمل في اكتشاف جديد.

٣- الاكتشافات العلمية تتسابق كل يوم لتقدم وسائل تنقيب عن الأحافير، ووسائل تحليل لما نجده من أحافير، كاكتشاف تحليل الحمض النووي الذي لم يكن معروفا من قبل، وما قدمه من نتائج مبهرة، استطعنا توظفيها في بحوث متعددة أتت بنتائج جيدة.

إن كل هذه الأشياء تجعل الأمل لدينا كبيرا في إثبات أن آدم عليه السلام كان يتكلم لغة ما؛ فما وصلنا إليه من نتائج علمية حديثة حول هذا الأمر حتى الآن لا تنفي ذلك، بل تكاد تثبته.

رأى مخالف:

ولكن على الرغم من هذه الأدلة وهذا النقاش وتلك الآراء التي تنادى بدراسة اللغة من خلال علم الإحاثة ومدى جدوى هذه الدراسة إلا أن هناك رأيا يرى عكس ذلك، حيث يقول: "إن البحث الإحاثي (الحفريات) لم يقدم ـــ برأيي ـــ أدلة قاطعة الثبوت"[١] وهذا غير صحيح، ولعل الباحث لم يطلع على ما قدمناه من أدلة آتية من

(١) البناء العصبي للغة، دراسة بيولوجية تطورية في إطار اللسانيات العرفانية العصبية، د. عبد الرحمن محمد طعمة، مكتبة كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط١،٢٠١٧، ص ٤٩.

بحوث حديثة كبحث إنسان نياندرثال لـ (سفيركر جوهانسون).

أما الدليل الذي نقله عن Cavalli-Sforza,L.L فليس دليلا قاطعا، حيث قال "من ضمن الأدلة الإحاثية المرتبطة بالجينات أن النوع البشري اكتمل تشريحيا وكان مهيأ جينيا للملكة اللغوية منذ ١٦٠ألف عام على الأقل وفق الحفريات المكتشفة، ثم قرب العلماء الفترة بأن ذلك حدث منذ ٤٠ ـــ ٥٠ ألف عام؛ حيث كان الانتشار الأول للبشر على وجه الأرض"[(١)].

هذا الأمر غير صحيح، فما وصل إلينا من خلال أحدث الاكتشافات الحفرية يعود إلى زمن قبل ذلك بكثير، وهو اكتشاف إنسان نياندرثال الذي يعود إلى ٣٥٠ ألف عام، الذي كان يتكلم – كما أثبتنا ذلك آنفا – مما يعني عدم اطلاعه على أحدث البحوث في هذا المجال، فلا يصح القطع بالرأي أن :

١- علم الإحاثة لم يقدم أي أدلة قاطعة على امتلاك الإنسان الأول للغة ما.

٢- وكيف يقول: إن الإنسان الأول كان مهيأ للملكة اللغوية منذ١٦٠ ألف عام؟ وقد كان هذا الإنسان يتكلم فعليا ـــ كما أثبتت البحوث الإحاثية الحديثة ـــ قبل ذلك التاريخ بـــ ١٩٠ ألف عام، وقدمت لنا أدلة بآليات حديثة على أن إنسان نينادرثال كان تكلم منذ٣٥٠ ألف عام.

(١) البناء العصبي للغة، دراسة بيولوجية تطورية في إطار اللسانيات العرفانية العصبية، ص٤٩.